اللخميون في الحيرة

تاريخ خمسة ملوك

٢٦٨ — ٤٠٣ م

بقلم حضرة صاحب المعالي الأستاذ

يوسف بك غنيمة

وزير مالية العراق السابق

يدل هذا البحث القيم — الذي بعث إلينا به الأستاذ يوسف بك غنيمة وزير مالية العراق السابق — على أنه درس موضوعه دراسة وافية دقيقة ، حتى أتاح لقراء المعرفة» أن يطلعوا فيه على ألوان بالغة الدقة . ولقد علمنا أن الأستاذ غنيمة بك معنى بأشباه هذه البحوث ، وأنه ألف في بعضها رسائل مستفيضة ، ولا شك أن القراء سينتفعون بها انتفاعاً جماً . ؟ المحرر

تمهيد

على بعد ثلاثة أميال من جنوبي الكوفة تشاهد أطلال مدينة الحيرة ، وقد نالت هذه الحاضرة شهرة بعيدة في التاريخ ، يوم كان الفرس سادة العراق في الجاهلية ، إذ نشأت فيها دولة عربية تعاقب على عرشها سلالتان : (١) السلالة التنوخية حكم منها ثلاثة ملوك ، وهم ملك ابن فهم ، وأخوه عمرو بن فهم ، وجذيمة الأبرش أو الوضاح (١٨٥ — ٢٦٨ م) ، (٢) سلالة اللخميين أو المناذرة من آل نصر ، ورأسهم عمرو بن عدي بن أخت جذيمة ، ولبثوا في دست الحكم حتى الفتح الإسلامي (٦٣٢ — ٦٣٢ م) مع فترات قليلة ؛ ولتاريخ مدينة الحيرة ومملكتها خطورة سياسية ، ودينية ، واجتماعية ، وعلمية .

فنظراً إلى وضعها السياسى كانت مملكة الحيرة حاجزاً بين دولتين عظيمتين: دولة الفياصرة فى الغرب، ودولة الأكاسرة فى الشرق؛ وكما يقول الانكليز (Buffer State)؛ أو كما تعرف عند الفرنسيين (Etat Tampon)؛ وكان ملوك الحيرة من أقيال ملوك الفرس الأكاسرة وعمالهم، كما كان الغسانيون فى الشام عمال الروم؛ ولآل نصر وقائع وحروب دامية وغزوات حملوا بها على الروم وعمالهم الغسانيين انتصاراً للفرس؛ أو غزواً للأمراء والقبائل العربية، وكانوا تارة ظافرين وطوراً مغلوبين.

أما خطورتها الدينية، فقد كانت - على مثال الممالك الشرقية - مقر أديان كثيرة، فيها عبادة جاهلية العرب، والزردشتية، والمانوية، والمزدكية، واليهودية؛ وكان الفوز فيها للنصرانية. فدان بها أهل الحيرة، وملوكها، وأمراؤها، وأميراتها، وشيدت فيها الديارات والبيع والصوامع، وفى عهدها الأخير دخلها الاسلام.

ولا تقل خطورتها الاجتماعية عن خطورتها السياسية والدينية، فإنها اشتهرت بعماراتها الفخمة وقصورها الزاهرة، كالخورنق، والسدير، وقصر العدسيين، والقصر ذى الشرفات من سنداد مما تغنى به الشعراء، وتفنن فى وصفه الواصفون؛ هذا فضلا عن ارتياد المرضى والمطريين وأهل الهوى والفرسان ربوعها وحاناتها ومقاصفها ومصايدها للاستشفاء، واللهو والطرب والغزل وسماع أصوات مغنيها وغنائيها ونغمات أعوادها وأوتارها؛ وكان فيها صناعات وتجارات وترف وزخرف مما يعجب منه المعجبون.

وإذا نظرنا فى خطورتها العلمية نرى تاريخها واسع النطاق، أسست فيها المدارس والمعاهد العلمية، ونشأ فيها الخط الجزمى؛ قصدها الشعراء فى الجاهلية، وذكروها وذكروا ملوكها فى معلقاتهم وبحورانهم ومشوباتهم وقصائدهم، ولا نظنّنا مغالين إن قلنا إن تاريخ الآداب العربية فى الجاهلية متغلغل فى تاريخ الحيرة، وهناك طائفة كبيرة من الأمثال العربية نشأت فى هذه المدينة، أو نسبت نشأتها إلى وقائع تتعلق بتاريخها.

دفعتنى كل هذه العوامل إلى تأليف كتاب مسهب فى تاريخ هذه الحاضرة بعنوان: « الحيرة: المدينة والمملكة العربية » عالجتُ فيه مختلف المواضيع المذكورة؛ ويقع الكتاب فى ٢٠٠ صفحة، وقد آثرت نشر بعض فصوله فى أمهات المجلات العربية قبل طبعه للوقوف على نقد العلماء؛ وقد خصصت هذا المقال بمجلة « المعرفة » الغرّاء؛ وموضوعه تاريخ خمسة ملوك لخميين، وهم: عمرو بن عدى، وامرؤ القيس البدء، وعمرو الثانى ابن امرىء القيس، وأوس بن قُلام العمليق، وامرؤ القيس الثانى بن عمرو الثانى.

١ — عمرو بن عدى

٢٦٨ — ٢٨٨ م (١)

بعد وفاة جذيمة الأبرش انتقل الملك إلى ابن أخته عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة ابن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنم بن غارة بن لخم (٢) رأس سلالة اللخميين فى الحيرة، ويقال لهم آل نصر والمناذرة، وآل عمرو بن عدى، أو آل الحرق ؛ وقال (هوارت) إن: الحرق اسم وليس لقباً على ما يظهر، وقد جاء فى ديوان جرير « عبد الحرّق » مما يحملنا على الظن أنه اسم إله جاهلى لا نعرف عنه شيئاً (٣).

قال كوسان دى برسفال : تقلد عمرو بن عدى منصبه من سابور بن أردشير (٤)، ونرى أن هذه الرواية توافق الحقيقة التاريخية على ما نظن ؛ خلافاً لما رواه حمزة الأصفهانى (٥) من أن عمراً بقى منفرداً بملكه مستبداً بأمره إلى أن أتى أردشير وقمع ملوك الطوائف بعد أن كسر (بابا) ملك نبط الشام، و(أردوان) ملك نبط العراق؛ فالذى نراه أن جذيمة الأبرش عاش فى عهد أردشير المنتصر على ملوك الطوائف ؛ ولما انتهى ملك الحيرة إلى عمرو بن عدى اضطر إلى تقلد منصبه من سابور خليفة أردشير، وفق الاتفاق المعقود بين أردشير وبين جذيمة (٦).

امتازت أيام عمرو بن عدى بثأر خاله جذيمة الأبرش من قاتلته الزبّاء على ما رواه المؤرخون العرب، وذلك بالتدابير الفعّالة والحيلة الناجعة التى اتخذها قصير بن سعد بن لخم، وكان العامل الذى دفع قصيراً إلى الثأر من الزبّاء أنه كان وزير جذيمة، وأمه كانت أمَة جذيمة ففشأ على النصح والإخلاص له (٧).

كانت الزبّاء — بعد قتلها جذيمة — تحاذر بطش ابن أخته وخليفته عمرو بن عدى، وكان قد حاذرها رجال قومها من بطشه بها، فاتخذت لها نفقاً من مجلسها إلى حصن لها داخل مدينتها،

---

(١) على رواية إيليا أسقف نصيبين : ملك عمرو سنة ١٢٤ ؛ وعلى قول عبد يسوع الصوباوى سنة ١٠٧. (راجع تاريخ كلدو واتور ٢ : ٢٠٨).

(٢) ابن الأثير ١ : ١٣٩، وقد وقع اختلاف فى آل نسب المنذر، فقد جاء فى مقدمة ابن خلدون ص ١٤٤ — ١٤٥ : أن العرب الذين كانوا فى معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطى وقضاعة وإياد، اختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم، فنى كل واحد من بيوتهم من الخلاف ما تعرف.

(٣) كليمان هوارت : تاريخ العرب ١ : ٦٣.

(٤) كوسان دى برسفال : تاريخ العرب قبل الاسلام ٢ : ٣٥. (٥) الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ٦٥. (٦) الطبرى ٢ : ٥٩ (٧) ابن الأثير ١ : ١٣٧.

دوحت مصوّراً فأرسلته إلى عمرو بن عدى متنكراً وقالت له: صوّره جالساً ، وقائماً ، ومنفصلاً ، ومتنكراً ، ومتسلحاً بهيئته ولبسه ولونه ثم أقبل إلىّ ، ففعل المصوّر ما أوصته الزباء ، وعاد إليها ، وأرادت بذلك أن تعرف عمرو بن عدى فى مختلف أحواله لتحذره (١).

لم يُجدها هذا الحذر نفعاً ، لأن قصيراً دبّر حيلة لاصطادها بفخاخها ، فإنه أتى إلى عمرو وقال له : اجدع أنفى واضرب ظهرى ودعنى وإياها ، فرفض عمرو الإقدام على هذه الفعلة ، فقام آنئذ قصير بها بنفسه ، فجدع أنفه ودقّ ظهره وهرب إلى الزبّاء وأخبرها : أن عمراً فعل بى هذا ، لأنه زعم أنى غدرت خاله وزينتُ له المسير إليك وغششته ، فأقبلتُ إليك وعرفت أنى لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك ، فلاطفته وأكرمته ، ولما عرف أنها وثقت به قال لها : إن لى بالعراق مالا كثيراً ، وبها طرائف وثياب وعطر فابعثينى إلى العراق لأحمل مالى وأحمل إليك من بزوزها وطرائف ثيابها وصنوف ما يكون بها من الأمتعة والطيب والتجارات ، فتصيبين بذلك أرباحاً عظاماً ، وبعض ما لا غنى بالملوك عنه ، فإنه لا طرائف كطرائف العراق ، فلم يزل يزين لها ذلك حتى سرحته ودفعت معه عيراً ، فقالت : انطلق إلى العراق فبع بها ما جهزناك به ، وابتع لنا من طرائف ما يكون بها من الثياب وغيرها ، فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق (٢) ، فأتى بيت مال الحيرة ، فأخذ منه بأمر عمرو ما ظن أنه يرضيها وانصرف إليها به ، فلما رأت ما جاء به فرحت وزادته ، ولم يزل كذلك حتى أنست به ، وبعد أن اطلع على موضع نفقها خرج فى تجارته كما كان يفعل ، وعرف عمرو بن عدى ، فركب عمرو فى ألفى دارع على ألف بعير فى الجوالق ، حتى إذا صاروا إليها تقدم قصير يسبق الإبل ودخل على الزباء ، فقال لها : اصعدى فى سائط مدينتك فانظرى إلى مالك وتقدمى إلى بوّابك ، فلا يعرض لشىء من أعكامنا ، فلما رأت الجمال تمشى ربها الخنا فقالت شعراً : (٣)

ما للجمال مشيُها وئيداً أجندلاً يحملن أم حديدا
أم صَرْمَاناً بارداً جديداً أم الرجال جُثَّماً قعودا

فدخلت الإبل المدينة حتى كان آخرها بعيراً مرّ على بوّاب المدينة ، وهو نبطى بيده منخسة ، فنخس بها الغرائر التى تليه ، فأصابت خاصرة الرجل الذى فيها ، فقال البواب بالنبطية: (بشتابسقا) ، يعنى بذلك «فى الجوالق شر» ، فلما توسّطت الإبل المدينة أنيخت ودل قصير عمراً على باب النفق قبل ذلك وأراه ، وخرجت الرجال من الغرائر ، وصاحوا بأهل المدينة ، ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو بن عدى على باب النفق ، وأقبلت الزبّاء مولية مبادرة تريد النفق لتدخله ، وأبصرت عمراً قائماً فعرفته بالصورة التى كان صوّرها له المصوّر ،

(١) الطبرى ٢ : ٣٥ (٢) ابن الأثير ١ : ٣٩٩ (٣) الاغانى ١٤ : ١٠٠ .

قصت خاتمها ، وكان فيه سم وقالت : « يبدى لا يبدك يا عمرو » ، وذهبت مثلا (١) ، وتلقاها عمرو بن عدى ، « فقتلها بالسيف،وأصاب ما أصابه من أهل المدينة ، وانكفأ راجعاً إلى العراق » (٢) بعد أن خرّب المدينة ، وسبى الذرارى ، وغنم كل شىء كان لها ولأبيها وأختيها (٣) .

وقد ألهمت حكاية هذه الواقعة موضوعاً للشعراء نظموا فى ذكرها أشعاراً : ومنهم عدى ابن زيد ، قال :

---

(١) يلاحظ هنا أن كثيراً من الأمثال فى اللغة العربية نشأت فى الحيرة ، أو نسبت إلى وقائع كان مهدها تلك الحاضرة ، وقد تكلّمتُ عن ذلك فى فصل النهضة العلمية من كتابى، وقد جمعتُ نحو ثمانين مثلا ونيف من هذا الطراز ، معظمها مذكور فى مجمع الأمثال للميدانى وجمهرة الأمثال لأبى هلال حسن بن عبد الله العسكرى ، وما بقى من الأغانى وكتب الأدب والتاريخ ؛ ومن الأمثال التى لها علاقة بثأر الزباء ما جاء عن لسان العرب؛ كقولهم : أثأر من قصير . أعزّ من الزبّاء . لأمر ما جدع قصير أنفه . ثأر سائر .آخر البزّ على القُلوص . جئت بما ساء وسمت ؛ وقيل عوضاً عن المثل « بيدى لا بيدك يا عمرو » « بيدى لا بيدك يا ابن عدى » . وأمنع من عقاب الجو . (٢) الطبرى ٢ : ٣٦.

(٣) الأغانى ١٤ :٧٣ هكذا انتهت حياة الزباء على ما رواه العرب،والذى عندنا أن هذه الرواية أسطورة من أساطير السالفين محكمة الوضع متقنة التلفيق ،يتجلى فيها تفنن الجاسوسية بأتم مظاهرها، ولا تخلو من بعض فوائد تاريخية أتت عفواً بين مطاويها ؛ كوصف تجارة العراق وطرائقه وما آتيه فى ذلك العصر،والإلماع إلى انتشار اللغة النبطية فى ذلك العهد فى العراق وما جاوره من الأصقاع ؛ أما قتل رجال الجيش فى الغرائر ، أو الاكياس خلسة ـ كما جاء فى قصة قصير والزباء ـ فله مثال فى الشاهنامة للفردوسى ؛والنفق المبحوث عنه فى حكاية الزباء كثيراً ما يروى أمثاله القصاصون العراقيون فى أقاصيصهم العامية . لا أنفرد فى الرأى القائل باعتبار رواية المؤرخين العرب عن قتل الزباء أسطورة ؛ بل يساندنى فيه غير واحد من المحدثين ، ولا سيما الافرنج منهم . يذهب كوسن دى برسفال فى تاريخه «العرب قبل الاسلام» ـ معتمدين على ابن نباتة والقزوينى ـ : إلى أن أباها كان الريان واسمه المليح بن براء؛ فمن المحتمل أنه كان من بنى العبيد الذين نشأ منهم ملوك حكموا إمارة الحضر بعد الجرامقة على ما رواه ابن الكلبى ؛ ولكن لا نتمكن من البت فى هذا الأمر إذ لنا فى رواية المسعودى وغيره من المؤرخين ما يقيم فى نفوسنا الريب بوجود سلالة عربية حكمت الحضر ؛ وعلى كل فان كوسن دى برسفال يظن أنه لا صحة لأسطورة الزباء ؛ ومن المحتمل أنها تلمع إلى نهاية حكم زنوبيا (زينب) ملكة تدمر ،تلك النهاية التى يتفق تاريخها عصر عمرو بن عدى،فربما أصابه قسم من ملكها بعد انقراض مملكتها.

أبُذَّ المنازل أم عفينا تقادم عهدها أم قد بلينا (١)

وقال ربيعة بن عوف السعدى ـ المكنى الخيل ـ قصيدته:

يا عمرو إنى قد هويت جماعكم ولكن من يهوى الجماع فراق

وقال أحدهم:

نحن قتلنا قُتَّحَلا وابن راعن ونحن خبنا بنت زبّاء بمنجل

فلما أتتها السيرُ قالت أبارِدٌ من التمر هذا أم حديد وجندل (٢)

وقال المتلمس: (٣)

وفى طلب الأوتار ما حزّ أنفه فصير ورام الموت بالسيف بيهس

وقال ابن دريد: (٤)

(١ و ٢) الطبرى ٢: ٣٦ (٣) الميدانى ١: ١٥٨ (٤) منصورته ص ١٧. وعلى الخضر، نقول إنها كانت إمارة موقعها إزاء تكريت فى البرية بينها وبين الموصل والفرات، ولا تزال آثار القلعة أو القصر بادية اليوم، وفيها من العظمة الصناعية ما يحيّر الألباب؛ وقد زارها غير واحد من السياح والأثريين؛ وقد وصفها عدى بن زيد، إذ قال:

وأخو الحَضْر إذ بناه وإذ دجلة تجبى إليه والخابور

شاده مرمراً وجلله كلساً فللطير فى ذراه وكور

لم يهبه ريب المنون فباد الـ ـملك عنه فبابه مهجور

وقال عنها صاحب معجم البلدان: مبنية بالحجارة المهندمة، بيوتها وسقوفها وأبوابها، ويقال: كان فيها ستون برجاً كباراً، وبين البرج والبرج تسعة أبراج صغار بإزاء كل برج قصر وإلى جانبه حمام؛ ويمرّ بها نهر الثرثار، وكان نهراً عظيما عليه قرى وجنان ومادته من الحرماس نهر نصيبين وتصب فيه أودية كثيرة؛ ويقال إن السفن كانت تجرى فيه، فأما فى هذا الزمان فلم يبق من الحضر إلا رسم السور والآثار تدل على عظم وجلالة. وكان الحضر إمارة اختلف المؤرخون فى ملكها: فذهب فريق إلى أنه كان من الجرامقة ويلقب الساطرون. والعرب تسميه الضيزن؛ وسماه الفرثيون والفرس ماتيزان؛ وصحف هذا الاسم الأخير الكتبة اليونان واللاتين بالصور الآتية: (Manisar, Mannesis, Mynnus) وأطلقوه على عدة أمراء شرقيين. واسم أحد الضيازن برشميا الذى عضد ينجر الرومانى فى حربه سبتموس ساويرس سنة ١٩٤ م؛ ومنهم من قال ـ كشهام بن الكلبى ـ: إن ضيزن الحضر عربى: وهو الضيزن بن معاوية بن الاجرام بن عمرو بن النخع بن سليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة، وجاء فى العمدة لابن رشيق ٢: ١٨٧ أن نصراً جد عمرو بن عدى هو الساطرون صاحب الحضر. وحكاية سابور بن أردشير فى فتحها معروفة مشهورة، تمكن من ذلك بخيانة بنت الساطرون التى تزوجها وتكل بها بعد ذلك، وقال فى ذلك عدى بن زيد:

وأرى المنون قد تدلى من الحضـ ـر على رب ملكه الساطرون

كل هذا يدل على تنازع حكم الحضر، كل من الجرامقة والعرب والروم والفرس.

وقد سما عمرو إلى أوتاره فاحتطّ منها كلّ عالى المستمى
فاستنزل الزبّاء قسراً وهى من عُقاب لوح الجوّ أعلى مُنتمى

واشتهر عمرو بن عدى باتخاذ الحيرة عاصمة لدولته ومقرّ سلطنته ؛ وكان الملوك التنوخيون قبله لا يستقرون بكرسيهم فى مدينة ، بل ينتقلون بين الحيرة وبقة والأنبار ؛ وبدأت الحيرة من عهد هذا الملك بالعمارة ، ودخلت فى عصر جديد من الخطورة والعظمة ، إذ اختارها منزلا له .(١)

ومما يسترعى الانتباه فى أقوال المؤرخين أن عمراً أول ملك مجده الحيريون فى كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق إليه ينسبون ؛ وكان فى سلطانه منفرداً مستبداً بأمره يغزو المغازى ويصيب الغنائم ، وتجبى إليه الأموال وتفد إليه الوفود دهره الأطول (٢) .

إن الذى نراه من العوامل الفعالة فى إعلاء شأن عمرو بن عدى والتفاف قبائل عرب العراق حوله، هو ما وقع من الأحداث للعرب فى مدينة الحضر من القهر والتنكيل على يد سابور بن أردشير ، وألفت فى عضدهم على ما ذكرناه فى فصلنا « نزوح العرب إلى العراق » ، وذلك حفظاً لكيانهم ودفعاً للطوارىء والأحداث ، ولا سيما أنه كان موالياً لسابور قد تقلد الحكم منه ، وكان يعد من عماله على أكثر الروايات ، أو أن سابوراً نفسه فوض إليه الحكم على عرب العراق بعد أن نكل بهم فى الحضر ، فذهبت شهرته بين القبائل ، ولا نعرف شيئاً عن هذا الملك .؟

[للبحث بقية] يوسف غنيمة

(١) حمزة الأصفهانى ص ٦٥ . (٢) الطبرى ٢ : ٣٧ .

واجبك ..! هل أديته ؟

انك ستؤديه بلا ريب ..

أيها الشباب المثقف :

إن مجلة « المعرفة » سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ؛ وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ؛ فليكن تعضيدكم إياه مشجعاً له ولغيره . . على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه